جهود السنوسي التلمساني في نشر الأشعرية وتثبيتها في الغرب الإسلامي

أ.د.عليوان اسعيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مقدمة:

يعد السنوسي التلمساني من علماء الجزائر الأكثر تأثيرا، ليس في الجزائر وحدها، بل وفي الغرب الإسلامي وخارجه، وقد أبدع في كل علوم عصره، وقد استحوذ عليه علم التوحيد باعتباره جوهر العلوم، فهو في نظره أساسها، وعليه تدار كلها، وهو ما يظهر في مختلف مؤلفاته خارج التوحيد كالتفسير والحديث والمنطق، وذلك لأن شرف العلم بشرف الموضوع، وموضوع علم التوحيد هو الله عز وجل وما يجب له وما يستحيل وما يجوز في حقه عز وجل.

وقد وجد في عصر يصدق عليه قول المقري (ت 795 هـ / 1392 م) " لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل في اليهود والنصارى لأننا أتينا بأكثر مما أتوا "[1]. وهو عصر ما بعد الموحدين بلغة مالك بن نبي. وكانت الأشعرية في عهد الموحدين من الأندلس إلى حدود مصر هي مذهب أهل السنة والجماعة، وقد حطموا بها ما بقي من آثار المرابطين من بعض التصورات التجسيمية والتشبيهية [2] فتقبلها الناس وتبنوها.

وبعد سقوط دولة الموحدين وقع انهيار عام. فكان الشيخ السنوسي من العلماء القلائل الذين أدركوا خطر الفوضى العقدية والفكرية التي حلت بالأمة، فكرس حياته لإنقاذها. ومن أهم وسائل الإنقاذ: نشر الأشعرية وتثبيتها، وإعادة الاعتبار للعقل

---

[1] -عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، د ط، ش ون ت، الجزائر، 1978،ص19.

[2] -جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، دط، م وك، الجزائر، 1981م،ص ص 40، 41.

بالدعوة إلى استخدامه وإحياء علومه، وقد اقتصرنا في هذه الورقة على جهوده في نشر وتثبيت الأشعرية في الغرب الإسلامي، وفقا للخطة الآتية:

- عصر السنوسي وحياته، وسائل النشر والتأثير، وهي كثيرة، منها: محتوى العقائد ذاتها حيث قدم عقيدة إسلامية نقية على مذهب أهل السنة والجماعة (السادة الأشاعرة) وأبطل بأدلة العقل والنقل عقائد المخالفين من معتزلة وخوارج ومجسمة ويهود ونصارى وغيرهم. وكذلك منهجه في العرض والتحليل، اعتماد المنطق منهجا في البحث، شخصيته المستقلة المتزنة...إلخ، وقد اقتصرنا على ثلاث وسائل، هي التصوف، التعليم، التأليف، وأخيرا التأثير، ونبدأ التحليل بمدخل عن عصره وحياته.

عصره

الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية

كان لسقوط دولة الموحدين في القرن 7 هـ / 13 م أثر كبير في الانحطاط العام، فكثر الملوك، وتصارعوا وتقاتلوا وطغوا، وأنقسم المغرب العربي إلى ثلاث دويلات متصارعة متحاربة، الحفصيون وجعلوا تونس عاصمة لهم، والزيانيون وجعلوا تلمسان عاصمة لهم، والمرينيون وقد اتخذوا فاس عاصمتهم [1].

و لما كانت الجزائر تتوسط هاتين الدويلتين فإن الضغط عليها كان أشد مما أثر على الحياة الاجتماعية. فحل البؤس الاقتصادي ومختلف الآفات الاجتماعية إضافة إلى تقريب أهل الذمة ولاسيما اليهود الذين كثروا فرارا من محاكم التفتيش بالأندلس، واتخذ بعض الأمراء مستشاريهم من أهل الذمة فعاثوا في الأرض فسادا [2] وقدموا نصائح الغدر للحكام [3]. انعكس كل ما سبق على الحياة الثقافية بتلمسان بلد الشيخ السنوسي رغم اهتمام الملوك الزيانيين بالعلم ووصول كثير من علماء الأندلس إليها، ومع ذلك فإن أغلب الدراسات العلمية لم تتجاوز عصرها إضافة إلى سيطرة التصوف السلبي على عقول المفكرين ناهيك عن العامة مما أدى إلى انزلاق العقل إلى الحضيض، فانتشرت كتب المناقب التي تجعل الناس يعيشون في اللاواقع إلى حد

---

[1] - جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص ص 14، 15.

[2] - عطاء الله دهينة وآخرون، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي)، د ط، م وك، الجزائر، 1984م، ص ص 489، 490.

[3] - رابح بونار، مقدمة مصباح الأرواح لأصول الفلاح، للمغيلي، د ط، ش ون ت، الجزائر، 1968م، ص ص 13، 14.

أن صاحب الطريقة اليوسفية أحمد بن يوسف الهواري الواجودي (ت 927 هـ / 1521 م) يدعي أحد أباعه فيه النبوة فيتبعه الأحلاف من البوادي وأهل الأهواء من الحواضر. أثر كل ما سبق على عقائد الناس، إذ نتيجة لاضطراب العقيدة وكثرة الفساد انحاز كثير من الناس إلى الهروب من الواقع الاجتماعي المتعفن للانقطاع للعبادة، فظهر كثير من أدعياء التصوف، وكان كثير منهم محتالا، وصار كل درويش مغفل يعد وليا وصاحب كرامات، وكل مستغل للعامة باسم الدين ومتقرب للسلطان باسم الطريقة يعد قطبا تأتيه الجبايات، ويقصده الحكام بالعطايا [1]، وظهر المشبهة والمجسمة وكثر الزنادقة والملاحدة وزاد بؤس المسلمين تتبع الأسبان لهم فاحتلوا سبتة ومليلة بالمغرب في 1497 م والمرسى الكبير في وهران وأرزيو ومستغانم ودلس وشرشال والعاصمة وبجاية ثم تونس وطرابلس ابتداء من 1505 م.

هذا هو مجتمع السنوسي، وهنا نصل إلى الإشارة إلى حياة السنوسي وشخصيته.

حياة السنوسي وشخصيته

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني (نسبة إلى سيدنا الحسن رضي الله عنه من جهة جدته لأبيه)، ولد على الأصح بين سنتي 838، 839 هـ / 1434، 1435م بتلمسان، نشأ في أسرة علم وأخلاق ودين، تتلمذ على كبار شيوخ عصره الذين يزيدون على 13 عشر شيخا، أخذ عنهم كل علوم عصره نقلية وعقلية وبرع وأبدع في كلها، من هؤلاء الشيوخ والده وأخوه لأم على التالوتي الأنصاري والقلصادي الأندلسي (ت 891 هـ / 1486م) وأبو العباس يوسف بن أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني، والعبادي (ت 871 هـ / 1466م) وأبو القاسم الكنابشي والشيخ عبد الرحمان الثعالبي (ت875 هـ/ 1470 م) [2].

وقد امتاز السنوسي بشخصية مهيبة ثابتة محيطة بعلوم عصرها وبمختلف أوضاعه. كما امتاز باستقلاله عن الحكام، لا يطرق أبوابهم ولا يأخذ عطاياهم ولا

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دط ، ش ون ت، الجزائر، 1981 م، ج 1، ص 49.

[2] - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى دراستنا عن السنوسي (محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق دراسة وتحقيق رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، 1989)، ص ص 17 – 26.

يقبل هداياهم ولا يدعو لهم، وكان من القلائل الذين تنبهوا لكيد اليهود وتآمرهم فناظرهم فأفحمهم وكان ثاني اثنين اللذين أيّدا المغيلي (ت 909 هـ، 1503م) في وضع حد لفسادهم [1] وقد بين تطور الأحداث صحة موقفه.

نقد علماء عصره وقسمهم إلى ثلاثة أصناف، فروعيون جامدون، ومتعمقون مغرورون تزلفوا للسلطان فصاروا من خاصته فهم علماء سوء، وعلماء مخلصون وهؤلاء هم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد انتصر للفقراء ضد من يحتقرهم وهم فئات ثلاث: أرباب الدنيا وأتباعهم والجامدون من الفروعيين والعلماء الذين فتنهم الشيطان.

توفي في 18 جمادى الثانية سنة 895 هـ / 1489 م ودفن بالعباد بتلمسان [2].

وقد ترك إنتاجا فكريا في مختلف العلوم والفنون النقلية والعقلية كالآتي:

17 كتاب في التوحيد، فسر القرآن الكريم بكامله تدريسا في مسجده. و3 كتب في علومه، وفسر الصحيحين وثلاثة كتب في الفقه منها شرح المدونة واثنين في الفرائض وواحد في السيرة النبوية وكتابين في التصوف وخمسة في المنطق وواحد في الرياضيات وثلاثة في الطب [3] . ولكن العلم الذي هيمن عليه وكون نظرته الكلية إنما هو علم التوحيد، كما ترك تلاميذ صاروا كبار علماء عصرهم المؤثرين فيه، وهنا نصل إلى مجالات أو جوانب التأثير العقدي والنشر الأشعري، ونبدأها بالتصوف.

مجالات ووسائل التأثير

أولا: التصوف

كان السنوسي متصوفا من الطراز الراقي، ولكنه كان كشيخه النقابي متصوفا دون طريقة رغم أخذه الطريقة الصوفية في صغره من شيخه إبراهيم النازي (ت 866 هـ/1461 م) [4] بوهران. ولن نتحدث هنا عن مذهبه الصوفي لأنه ليس موضوعنا، ولكننا نذكر بأنه لم يتجه كما اتجه تلميذه غير المباشر عبد الرحمان الأخضري (ت 953 هـ

---

[1] - ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن شنب، د ط، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908 م، ص ص 256، 257.

[2] - محمد بن عمر الملالي، المواهب القدسية في المناقب السنوسية، مخ رقم 6253، دار الكتب الوطنية، تونس، ورقات 63/أ.ب 11 2/أ.

[3] - المصدر نفسه، ابتداء من ورقة 138/أ.

[4] - ابن مريم، البستان، ص 60.

/1546 م) [1] الذي شرح صغراه [2] إلى الهجوم المباشر على أدعياء التصوف في قدسيته الشهيرة.

ومما قاله فيهم:

قد نبذوا شريعة الرسول فالقوم قد حادوا عن السبيل
لم يدخلوا دائرة الطريقة فضلا على طريقة الحقيقة
لم يقتدوا بسيـد الأنـام فخرجوا عن ملة الإسلام [3]

السنوسي إذن اتجه إلى تصحيح المفاهيم تصحيحا عقديا ليستقيم إيمان الناس، وهذا في تصورنا ما جعل أهل التصوف يتبنون مؤلفاته العقدية عامة، وأم البراهين خاصة، ويتكفلون بنشرها وتدريسها. وهكذا استطاع السنوسي أن يحول المتصوفة من كونهم سببا في تخلف الدراسات الكلامية والمنطقية لقيامه على العقل الذي يحاربونه بادعائهم المعرفة الذوقية إلى ناشرين لها ومستقرين على قاعدة:

في عقد الأشعر وقعه مالك: وفي طريقة الجنيد السالك.

وهاهي إشارة إلى بعض تلك المفاهيم:

مفهوم الولي:

أشرنا قبلا إلى كثرة أدعياء الولاية كذبا وبهتانا، فحسم السنوسي هذه القضية بوضعه أربعة شروط يجب توفرها في الولي الحقيقي وإلا كان مدعيا لا وليا، هي:

1- أن يكون عارفا بأصول الدين: حتى يفرق بين الخلق والخالق، وبين النبي ومدعي النبوة.

2- أن يكون عالما بأحكام الشريعة نقلا وفهما: وذلك ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشريعة كما اكتفى ذلك في أصول التوحيد، أي يجب أن يكون قد وصل إلى مرتبة الاجتهاد لأنه [4] " لا يفهم من قولنا ولي إلا الناصر لدين الله، وهذا ممتنع في

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 508.

[2] - وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحمل رقم 1426.

[3] - شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبي القاسم سعد الله، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987 م، ص 132.

[4 - 2- 3] : الملالي، المواهب القدسية، ورقة 41/أ.

[4] - المصدر نفسه، ورقة 200 / أ.

[5] - المصدر نفسه، ورقة 202 / ب.

حق من لا يحيط علما بدين الله وقواعده وأصوله وفروعه "[2]. وهذا الشرط يحتم أن يكون الولي قد تجاوز مرحلة التقليد إلى الاجتهاد، وأنه هو الذي يقيم الدين أصولا وفروعا.

3- **التخلق بالخلق المحمود الذي دل عليه الشرع والعقل.**

4- **ملازمة الخوف له أبدا سرمدا:** لأنه لا يعرف هل هو من أهل السعادة أم الشقاوة[3].

قضية اتخاذ شيخ واسطة: يرى كثير من المتصوفة أن الإنسان يجب عليه أن يتخذ شيخا واسطة يكون مرجعه في كل شيء ولا يحق له استخدام عقله في فهم النصوص، وقد استدلوا على ذلك بكون جبريل عليه السلام واسطة بين الله وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. السنوسي انتقد هؤلاء وقرر بأنه " على العارف أن يقدم في أعماله الرسول (ص) إماما له [لا شيخ طريقة] ليقتدي بأقواله وأفعاله، ويرتبط به ولا يخالفه بوجه "[4]. وبهذا حرر السنوسي المسلمين من سلطان كهنوت أدعياء التصوف.

العقل والذوق: أيهما الأصل في معرفة الله؟

السنوسي يحسم هذه القضية بتقرير وضح صريح، لا ينكر الذوق ولكنه يرتبه بعد المعرفة العقلية ويجعله تابعا لها وغير متعارض معها، فإذا تعارضا كان الحكم للعقل على الذوق ولا عكس، فالعقل إذن أعلى من الذوق رغم أن الذوق آخر مقام السالكين، وبهذا يخالف المتصوفة القائلين بأن الذوق أساس المعرفة وليس العقل، وقد بين السنوسي هذه الحقيقة في شرحه لأبيات أحد المتصوفة، مطلعها:

رأيت ربي بعين قلبي فقلت لا شك أنت أنت

و مما قاله في شرح **أنت أنت**:

" **أنت الآن بحسب المعرفة الذوقية هو أنت أولا بحسب المعرفة الرسمية التي أنتجتها البراهين العقلية إذ علامة صحة الذوق أن يجيء على وفق الرسمية** "[5].

وبالتصحيح العقدي للمفاهيم السابقة وغيرها أثر السنوسي في المتصوفة وجعلهم ناشرين لعقيدته الأشعرية.

ثانيا: التعلم

السنوسي قضى حياته معلما للصغار والكبار وواعظا، وكل هذا له أثره البالغ في نشر أفكاره، ولاسيما أنه صاحب مشروع، ذو منظومة فكرية أشعرية متكاملة، محورها الجوهري علم التوحيد الذي تدور عليه العلوم كلها، وبه يفتح الله في فهمها وليس ثمة علم يورث صاحبه الخشية من الله والمعرفة به سواه، وهو أشرف العلوم بشرف موضوعه الذي هو الله عز وجل، وقد دعاه إلى التركيز في التعليم على هذا العلم (العقيدة) ظروف عصره، ومن أهمها:

- حركة التجسيم والتشبيه التي ظهرت عند بعض الناس، وقد ناظر السنوسي بعضهم وأفحمهم.
- حركة التحلل التي بثها اليهود والنصارى من جهة والترف الأندلسي من جهة أخرى.
- تكالب النصارى على المسلمين، فقد سقطت غرناطة سنة 897 هـ، 1491 م وتتبع النصارى المسلمين باختلال الشواطئ الجزائرية كما ذكرنا قبلا، فاستلزم هذا تحصين المجتمع بعقيدة صحيحة مبرهنة عقليا.
- كثرة أدعياء التصوف والمشعوذين الذين أفسدوا عقيدة الأمة وشوشوها وهددوا الحياة العقلية بكاملها فخدروا المجتمع، وبثوا روح التقليد والإتباع بدل الإبداع.

لكل ما سبق وغيره قرر السنوسي نشر العقيدة الصحيحة (الأشعرية) ومختلف العلوم، تعليما وتأليفا، ويجب أن نذكر هنا بأن التعليم لا يفيد فقط في التأثير في الناشئة والتنشئة الاجتماعية، بل يفيد أيضا في نضوج الأفكار وصقلها وتنقيحها وتعديلها وضبط مفاهيمها قبل تسجيلها في مؤلفات، وهكذا فالسنوسي يعلّم العقيدة ويؤلف فيها، وهو ما جعله يؤلف مختلف كتبه فيها بذلك المستوى التسلسلي التدرجي من الأبسط إلى المتعمق، من صغرى الصغرى إلى الكبرى، ولكي يحقق هذا الغرض، فقد ابتكر منهجا تربويا لا يقل عن الأنظمة التربوية الحديثة، وهو ما يجعلنا نشير إلى منهجه التربوي.

منهج السنوسي التربوي:

القيام بدراسة مسبقة لنفسية المتمدرس: وذلك لمعرفة قدراته العقلية والطريقة المناسبة لها، وبذل عناية زائدة لغير المتفوقين [1] ، وهذا ما يقرره علم النفس الحديث [2].

1- اختيار الوقت الملائم لتقديم المادة العلمية : وهذا من أهم ما وصل إليه علم النفس الحديث [3].

2- الاعتناء بهيئة المعلم: كاللباس والرزانة والوقار والجلوس في مكان مرتفع ليسمع الجميع ويراقب الكل فيتمكن من التحكم في الحصة.

3- تربص الأساتذة والمعلمين: يجب أن ينقطع الأستاذ عن التدريس بين الفينة والأخرى أسبوعا أو أقل أو أكثر، وذلك لمراجعة معلوماته وتنقيحها واكتساب معارف جديدة والتعمق في تخصصه [4] وهذا ما نراه اليوم مطبقا في مختلف مراحل التعليم.

4- استخدام وسائل الإيضاح: ومنها القصص [5] وذلك لتوضيح المعنى وترسيخه، وهذا ما يقول به علم التربية الحديث.

5- رفض ضرب المتمدرسين واعتبار الضرب طريقا غير تربوي: وقد بناه على موقف الغزالي من السببية ورد في ذلك على المعتزلة في قضية السببية وشنع على الذين يضربون المتمدرسين وقد استند في هذا إلى الأحاديث النبوية، منها قوله صلى الله عليه وسلم "إنما يرحم الله من عباده الرحماء" [6] ومن أضرار الضرب في نظر السنوسي أنه يؤثر في نقصان العقل ولو بعد الكبر [7]، وهو يتوافق مع ابن خلدون الذي

---

[1] - المصدر نفسه، ورقة 14 / أ.

[2] - أحمد مختار غضاضة، التربية العلمية والتطبيقية، ط2، مؤسسة الشرق الأوسط للطباعة والنشر، بيروت، 1962. ص ص 48، 49.

أيضا: محمد غياتي وآخرون، كيفية تسيير الدروس من وحي التربية وعلم النفس،دط، وزارة التربية الوطنية، مراكش، ص 48.

[3] - محمد غياتي وآخرون، المرجع السابق، ص 49.

[4] - الملالي، المواهب القدسية، ورقة 124 / أ.

[5] - المصدر نفسه، ورقة 104 / ب.

[6] - متفق عليه.

[7] - الملالي، المواهب اقدسية، ورقة 115 / أ.

حدد مساوئ كثيرة للضرب، منها القضاء على شخصية الطفل والتجائه إلى النفاق والمكر وفساد المروءة والعزوف عن اكتساب الفضائل وغير ذلك من المساوئ [1].

و الواقع أن الأنظمة التربوية الحديثة كلها تجرم الضرب، وهنا نصل إلى الحديث عن منهجه في التدريس والتأليف.

منهج التدريس والتأليف:

توصلنا من خلال تتبعنا لحياته ومؤلفاته ما يأتي:

1- اتباع الطرق التربوية التي ذكرناها قبلا، وقد استنبطها من القرآن والسنة ومن ظروف عصره.

2- استخدامه المنطق منهجا في بناء استدلالاته، وهذا ما جعل كتبه منظمة ومرتبة أحسن ترتيب، تنال إعجاب الناس بها محتوى ومنهجا، ونلاحظ هنا أن الغرب الإسلامي اتجه إلى دراسة المنطق والتأليف فيه ولاسيما في تلمسان، فالسنوسي مثلا ألف خمسة كتب فيه، وتلميذه المغيلي كتب مقدمة في المنطق [2] ومنظومة فيه وله عليها ثلاثة شروح [3]، وغيرهما. في حين كان المشرق الإسلامي لا زال يقول بتحريمه وعلى رأس المشارقة آنذاك السيوطي (ت 911 هـ/1505م) الذي أفتى بتحريمه [4] ووقعت مساجلة بينه وبين المغيلي في ذلك، السنوسي اهتم به لإعادة بناء التفكير العقلي على أسس سليمة لإعادة الانبعاث الحضاري، وقد ذكرنا أن السنوسي كان صاحب مشروع وهكذا أعجب الناس بمؤلفات السنوسي كما أعجبوا من قبل بمؤلفات شيخه غير المباشر أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ / 1111 م) الذي كان له أكبر الأثر عليه هو وابن عرفة [5] (ت 807 هـ / 1404 م) فيما يتعلق بالأخذ بالمنطق.

3- تدريس العقيدة ابتداء من مختصرات مضبوطة دقيقة التعبير، سلسلة الألفاظ، تحتوي على أهم مسائل التوحيد، مبرهنا عليها ببراهين دقيقة يستوعبها المرء ويقتنع

---

[1] - ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة ، د ط، دار العودة، بيروت، د ت، ص 449.

[2] - الملالي، المواهب القدسية، ورقة

[3] - ابن مريم، البستان، ص 255.

[4] - جلال الدين السيوطي، صوت المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص 3.

[5] - محمد بن يوسف السنوسي، شرح مختصر في علم المنطق، تحقيق عليوان اسعيد، ط 1، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2009، ص 507.

بها، ثم نرتقي به إلى شرح موسع حسب ما يحتمله عقله، نناقش فيه المعارضين والزنادقة وأهل الملل، فننقض آراءهم وتخلص العقيدة الإسلامية من كل الشوائب، وبهذا نجعل علم التوحيد علما عمليا لا نظريا فقط. وهذا هو السر - في تصورنا - الذي جعل السنوسي يؤلف الكبرى والوسطى والصغرى وصغرى الصغرى وغيرهما، ثم يشرحها كلها، علما أن الشرح عنده لا يقتصر على مجرد توضيح أفكار المتن بل التوضيح والإثراء والإتيان بأفكار جديدة وتوسيع آفاق المسلم بحيث لا يبقى ذهنه محصورا في وريقات المتن، مما يكسب المتعلم علما غزيرا [1] ، بحيث يطلع بعد أن يحكم عقيدته على فلسفات اليونان وأباطيل النصارى وتحريفات اليهود وزيغ المنحرفين، وهو في الوقت ذاته توجيه المسلم إلى استخدام عقله وإلى الاستنتاج والتحليل والتعليل ومحاربة الجمود.

وكيف لا، والسنوسي يرفض إيمان المقلد، لأن عدم استخدام العقل يسوي بين النبي ومرعي النبوة.

فالعقل إذن يجب أن يتحرر من الجمود والضياع الفكري، ولا يقوم بمهمة تحرير العقل سوى علم التوحيد، ومن العلوم التي تساعده في ذلك عند الشيخ السنوسي علم المنطق، وهو ما جعله يؤلف، فيه ويدعو إلى تعلمه باعتباره آلة العقل [2] ، وهاهي إشارة إلى مؤلفاته في التوحيد وسنكتفي بعرضها طلبا للاختصار – علما أنها منتشرة في مختلف مكتبات العالم الإسلامي بين مطبوع ومخطوط مما يدل على الانتشار – وسنشير ببعض التفصيل لأم البراهين وشرحها.

ثالثا : مؤلفاته في التوحيد

بلغت مؤلفاته في التوحيد 17 كتابا، وقد قسمناها إلى قسمين :

كتبه متنا وشرحا، وشروحه على غيره.

أ- كتبه متنا وشرحا:

1- العقيدة الكبرى: وقد سماها " **عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع وعنيد** " هذا أول كتاب ألفه في التوحيد ويلاحظ من عنوانه رفض التقليد والرد على أهل البدع.

---

[1] - جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص ص 105، 106.

[2] - محمد بن يوسف السنوسي، شرح مختصر في المنطق، ص 505.

2- **شرح العقيدة الكبرى:** وقد سماها : " **عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة التوحيد** " وهو شرح للكتاب السابق [1].

3- **العقيدة الوسطى:** وهي دون الكبرى في الحجم نبه فيها على جزئيات انفرد بها [2] وقد شرحها أبو إسحاق الأندلسي السرقسطي وسمى شرحه لها "الهبة والعطافي في شرح العقيدة الوسطى".

4- **شرح العقيدة الوسطى:** وهو شرح للكتاب السابق.

5- **العقيدة الصغرى:** وتسمى " **أم البراهين** " [3] وذلك لجمعها كل أركان العقيدة الإسلامية محتوية على أهم البراهين المثبتة للإيمان بالوجود الإلهي والنبوة ومختلف السمعيات، وقد اشتهرت أيضا بـ " **السنوسية** " و" **عقيدة السنوسي** " وقد بين السنوسي أهميتها بقوله "...وفقنا سبحانه بفضله في هذا الزمان الكثير الجهل بوضع عقيدة صغيرة الجرم، كثيرة العلم، محتوية على جميع عقائد التوحيد " [4] وقد بناها كلها على أحكام الحكم العقلي وهي الوجوب والاستحالة والجواز، وبعد تعريف كل منهما بيّن بأنه يجب على كل مكلف شرعا أن يعرف ما يجب في حق الله عز وجل وما يستحيل وما يجوز [5] **فمما يجب لله عز وجل: عشرون (20) صفة:** مقسمة إلى أربعة أقسام، هي:

1- **الصفة النفسية: واحدة، هي الوجود** [6]، ووجود الله كامل ذاتي مطلق [7].

2- **الصفات السلبية:** وعددها **خمسة (5)** هي : **القدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية** [8].

---

[1] - الملالي، المواهب القدسية، ورقة / ب.

[2] - المصدر نفسه، ورقة 139 / أ.

[3] - المصدر نفسه، ورقة 139 / أ.

[4] - محمد بن يوسف السنوسي، شرح أم البراهين. مخ دار الكتب الوطنية، تونس، رقم 1903.

[5] - محمد بن يوسف السنوسي، أم البراهين، تحقيق جمال الدين بوقلي حسن (ضمن كتاب الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد)، ص 447.

[6] - المصدر نفسه، ص 447.

[7] - محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ط 5، دار الفكر، دمشق، 1397 هـ، ص 117.

[8] - السنوسي، أم البراهين، ص 447.

3- **صفات المعاني:** وعددها **سبعة** (7) هي **القدرة والإرادة**، وهما متعلقتان بجميع الممكنات، **والعلم** ويتعلق بجميع الواجبات والمستحيلات والجائزات، **والحياة**، وهي لا تتعلق بشيء، **والسمع والبصر** ويتعلقان بجميع الموجودات، **والكلام** الذي ليس بحرف ولا صوت، ويتعلق بما يتعلق به العلم من المتعلقات [1].

4- **الصفات المعنوية:** هي نتائج صفات المعاني، أي الأحكام المترتبة على ثبوت صفات المعاني [2]، وهي كونه تعالى: **قادرا، مريدا، عالما، حيا، سميعا، بصيرا، متكلما**"[3].

بعد ذلك انتقل إلى بيان **ما يستحيل في حقه تعالى** وهي **20 صفة** هي أضداد العشرين الأولى وهي العدم والحدوث، إلخ.

بعد ذلك بين **الجائز في حقه تعالى** وهو: **فعل كل ممكن أو تركه** [4].

و يمكن أن نعتبر ما سبق قسما أولا، ثم انتقل في قسم ثان إلى البراهين العقلية الرائعة على وجوب تلك الصفات لله عز وجل مرتبة كالآتي:

برهان وجوده عز وجل، برهان وجوب القدم له، برهان مخالفته للحوادث، برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه، برهان وجوب الوحدانية لله، برهان وجوب اتصافه تعالى بالقدرة والإرادة والعلم والحياة. برهان وجوب السمع والبصر والكلام لله عز وجل، برهان فعل الممكنات أو تركها [5].

وفي قسم ثالث **تكلم على الرسل**: وبنفس المنهجية السابقة فبين ما يجب في حقهم وما يستحيل وما يجوز.

و في قسم رابع برهن على هذا الوجوب والاستحالة والجواز [6].

و في قسم خامس **شرح كلمتي التوحيد " لا إله إلا الله محمد رسول الله "** وربطها ربطا منطقيا بما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه تعالى وكذا ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الرسل فقول "**لا إله إلا الله**"، يتضمن الأقسام الثلاثة التي يجب على

---

[1] - المصدر نفسه، ص ص 447، 448.

[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع السابق، ص 140.

[3] - محمد بن يوسف السنوسي، أم البراهين، ص 448.

[4] - المصدر نفسه، ص 448.

[5] - المصدر نفسه، ص ص 449، 450.

[6] - المصدر نفسه، ص ص 450، 451.

المكلف معرفتها في حق الله عز وجل، وهي ما يجب في حقه تعالى وما يستحل وما يجوز [1]. وأما قولنا " **محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم** " فيدخل فيه " **الإيمان بسائر الأنبياء والملائكة والكتب السماوية واليوم الآخر** " لأنه (ص) جاء بتصديق جميع ذلك [2] وبين أنها تتضمن ما يجب في حق الرسل وما يستحيل وما يجوز وقد ذيّل ما سبق بأن كلمتي الشهادة تتضمن مع قلة حروفها لجميع ما يجب على المكلف معرفته من عقائد الإيمان في حق الله وفي حق رسله " ولعلها لاختصارها مع اشتمالها ما ذكرناه جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام ولم يقبل من أحد الإيمان إلا بها " [3] ولذا نصح المسلمين بكثرة تكرارها مع استحضار معانيها فإن لها من الأسرار والعجائب ما لا يمكن حصره [4].

هذا هو كتاب أم البراهين، وهو من حيث الحجم لا يزيد على خمس صفحات بلغة متخصصة سهلة يمكن للعامة ولغيرهم حفظها وفهمها وقد انفرد فيه بشرح كلمتي التوحيد، وقد فصلها في شرح أم البراهين فقسمها إلى سبعة فصول، هي : ضبطها، إعرابها، بيان معانيها، بيان حكمها، بيان فضلها، كيفية ذكرها على الوجه الأكمل، بيان الفوائد التي تحصل لذاكرها، وبين أن لا إله إلا الله تتضمن الأقسام الثلاثة التي يجب على المكلف معرفتها في حق الله عز وجل وهي ما يجب في حقه تعالى وما يستحيل وما يجوز، ومحمد رسول الله يدخل فيه الإيمان بسائر الأنبياء إلخ، ما ذكرناه قبلا، وهذا يعني بوضوح أن كل عقائد الإسلام ملخصة في كلمتي الشهادة [5].

- شرح السنوسي لكلمتي الشهادة فريد من نوعه بحيث لم نر أحدا من المفكرين قام به وبتلك الطريقة.
- أم البراهين عبارة عن نسق فلسفي منطقي كامل، متكامل بني على التقسيم الثلاثي يكفي الإنسان المسلم استيعاب هذه العقيدة ببراهينها الرائعة الراقية.

---

[1] - المصدر نفسه، ص 452.

[2] - المصدر نفسه، ص 453.

[3] - المصدر نفسه، ص 453.

[4] - المصدر نفسه، ص 453.

[5] - محمد بن يوسف السنوسي، شرح الصغرى، مخ دار الكتب الوطنية، تونس، رقم 1903، شرح كلمتي الشهادة.

وقد تمخضت في تصورنا عن تفكير عقلي عميق، وجاءت خالية من الحشو والتعقيد.

- لما سبق وغيره كثرت فوائدها وانتشرت شرقا وغربا، وأصبحت تدرس في بعض المجالس كل جهة [1] وكان السنوسي يعطيها أهمية خاصة وبالغة، فكان يرى بأنها لا نظير لها ولا مثيل فيما علم ومن اقتصر عليها كفته عن سائر العقائد والدواوين الكبار [2] ولأهميتها فقد مدحها كبار العلماء، منهم:

* محمد بن الحاج بن يحبش التازي (ت 921 هـ / 1514م) الذ بين محاسنها ومحاسن شرح السنوسي لها في قصيدة رائعة، منها:

و فريدة صاغ الإمام المرتضى ... العالم الجرالتقي الأمجد
لو أبصرت عيناك حسن عقيدة ... قد صاغها هذا الإمام الأوحد
لرأيت ما يجلي القلوب من الصدا ... وسناها نورا حكاه الفرقد
فعليك يا نعم الحبيب بدرسها ... تدرك فوائد دونها لا توجد
في شرحها ظهرت غرائب علمه ... فاقصد إليه وزد فنعم المورد
عول على كتب الإمام فإنها ... تغنيك عن طلب الشيوخ وتسعد
... إلخ آخر القصيدة [3].

و الحقيقة أن السنوسية من أهم ما كتب في العقائد، فهي تمتاز ببساطتها وعمقها في آن واحد، كما تمتاز بشمولها لعقائد الإسلام وقوة براهينها وهذا ما جعلها تزداد انتشارا وشهرة على مر الأيام في معظم بلاد الإسلام وتتبناها الطرق الصوفية وصارت تدرس في المساجد والبيوت والمدارس، وتوضع عليها الشروح والحواشي الكثيرة من المختصين بعلم التوحيد كالملالي وعلي بن جبريل (- 1532م) وأحمد المقري التلمساني (ت 1630 م)، ومحمد بن مهدي الدرعي الجرار (ت 1571م) وقد نظمها ابن الحاج (ت حوالي 890 هـ)، ومما قاله فيها:

وبعد فالمقصود من هذا النظام ... نظم عقيدة السنوسي الإمام

---

[1] - جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص 78.
[2] - الميلالي، المواهب، ورقة 13/ أ.
[3] - المصدر نفسه، ورقة 139 / أ.

من غير تبديـــــل ولا تغييـــر سوى اختلاف اللفظ والتعبير [1]

وقد ترجم السنوسية الأستاذ (وولف) إلى الألمانية وفسرها ليبسيك سنة 1848 م كما ترجمها لوسياني إلى الفرنسية مع تعليقات عليها ونشرها بالجزائر سنة 1895 م بأمر من الحاكم العام الفرنسي بالجزائر جول كامبو [2] ويبدو أن الهدف من هذه الترجمة معرفة الروح الحقيقية التي تحرك الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي والتي حافظت على عقيدتهم، فكانت السنوسية من أهم ما وقف في وجه المبشرين وأفشل مخططاتهم التنصيرية وذلك بانتشارها في الجزائر كلها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

وقد طبعت بالعربية طبعات لا تعد ولا تحصى وفي مواطن مختلفة وذلك لأهميتها كما ذكرنا، منها طبقة جاوة باندونيسيا سنة 1310 هـ. كما طبعها قبلا أحمد الطوخي في كتابه " كتاب مجموع من أمهات المتون" سنة 1882 م والدسوقي في حاشيته على أم البراهين وإبراهيم البيجوري في حاشيته على متن السنوسية وهذا يعني وصولها إلى مصر، إلى الأزهر واعتناء علمائه بها. كما طبعت بفاس وتونس.

أما مخطوطاتها فهي كثيرة، وفي مختلف مناطق العالم الإسلامي وهو ما يدل على الانتشار والتثبيت، ومن ذلك:

توجد مجموعة بالمكتبة الوطنية بالجزائر، ومجموعة أخرى عن نسختها بدار الكتب الوطنية بتونس كما توجد بمكتبة السليمانية بتركيا، وقد قام بتحقيقها تحقيقا علميا الأستاذ جمال الدين بوقلي حسن ضمن دراسته القيمة عن السنوسي "الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد" سنة 1985 م كما نشرها وعلق عليها أيضا الأستاذ الشاعر مصطفى الغماري.

6- **شرح العقيدة الصغرى (شرح أم البراهين)** : وفيها شرح لأم البراهين بكثير من التفاصيل الدقيقة، وتعد أم البراهين وشرحها أساس فهم مذهب الشيخ السنوسي [3].

وقد ختم الكتاب بباب مهم يذكر أنه لم يتعرض له غيره. وهو شرح مهم لكلمة التوحيد " **لا إله إلا الله محمد رسول الله** " كما بينا قبلا.

---

[1] - ابن مريم، البستاني، ص 9.

[2] - جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص 82.

[3] - جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص 88.

و لأهمية هذا الشرح، فقد طبع مع متنه عشرات المرات وفي مواطن كثيرة مما يدل على سعة الانتشار، فقد طبعت مثلا بالمطبعة الأزهرية بمصر سنة 1313 هـ بهامش حاشية الدسوقي عليها، كما طبعت بمصر أيضا في سنوات 1300 هـ و1301 هـ و1302 هـ وبهامشها تقرير الشيخ الأنباني، وكانت قبل ذلك قد طبعت بمصر طبعات حجرية في سنوات 1279 هـ - 1283 هـ و1289 هـ و1298 هـ كما طبعت طبعات حجرية أخرى بمصر في سنوات 1304 هـ و1307 هـ و1310 هـ و1313 هـ كما طبعت في غير مصر. أما نسخها المخطوطة فلا تعد ولا تحصى، ومن ذلك توجد نسخ بالمكتبة الوطنية بالجزائر وأخرى بدار الكتب الوطنية بتونس ودار الكتب الوطنية بمصر وتركيا.

وقد شرح الصغرى كثير من العلماء منهم إبراهيم الباجوري (ت 1277 هـ) الذي كتب حاشية على أم البراهين، وقد طبعت ببولاق بمصر سنة 1293 هـ في 682 ص وطبع بهامشها تقرير الشيخ أحمد الأجهوري عليها، كما طبعت في مصر سنوات 1300 هـ، 1301 هـ و1302 هـ كما ذكرنا وبهامشها تقرير الشيخ الأنباني، وقد شرحها أيضا الدسوقي (ت 1214 هـ) الذي كتب حاشية على شرح السنوسي لها، وبهامشها شرح السنوسي، وهذا يعني أن مجموعة من علماء الأزهر تصدوا لها بالشرح والتعليق والتدريس.

أما مخطوطات الذين شرحوها فكثيرة، منها:

- شرح الأخضري على أم البراهين.
- شرح الحسن بن يوسف الزباني.
- شرح الشيخ أبي العباس أحمد بن مزيان.
- شرح عيسى السكتاني مفتي مراكش (ت 1062 هـ).
- شرح سعيد قدمرة مفتي الجزائر (ت 1066 هـ).
- شرح يحي الشاوي (ت 1096 هـ).
- شرح محمد بن عمر الملالي.
- شرح عبد الله بن محمد الملالي (ت 897 هـ).
- شرح عيسى البراوي، شرح محمد المأمون بن محمد الحفصي، شرح محمد بن منصور الهدهدي، وهذا كله يدل على الانتشار والتأثير والتثبيت.

6- **المقدمات:** وذكر الملالي أن السنوسي وضعها مبيّنة لعقيدته الصغرى [1].

[1] - الملالي، المواهب القدسية، ورقة 140 / ب.

7- **شرح المقدمات:** وتسمى بمقدمات السنوسي وهي شرح للأولى وقد بنيت على قواعد المنطق وقد أثر بها السنوسي كثيرا على دارسي علم التوحيد [1]، وقد شرحها العلامة أبو إسحاق الأندلسي، ويسمى شرحه لها " **المواهب الربانية في شرح المقدمات السنوسية** " [2] كما قام لوسياني بتحقيق المقدمات وترجمتها إلى الفرنسية في 1904 م.

8- **صغرى الصغرى:** وقد ألفها السنوسي خصيصا لوالد تلميذه الملالي بعد أن ضعف بصره [3].

9- **شرح صغرى الصغرى:** وذكر الملالي أن هذا الشرح يحتوي على فوائد عجيبة ونكت غريبة انفرد بها [4].

10- **شرح أسماء الله الحسنى:** جاء في حوالي 20 ورقة ومنهجه فيها أن يشرح الاسم ثم يذكر حظ العبد منه [5].

11- **عقيدة أخرى:** انفرد الملالي، بذكر هذه العقيدة ولم يبين اسمها [6].

12- **الدهرية:** وهي قصيدة له نقد فيها مذاهب الدهرية والزنادقة والملاحدة بأدلة علمية، وقد تأثر فيها بالإمام ابن فورك (ت 406 هـ - 1015 م)، ويظهر جليا من خلالها اطلاع السنوسي على مختلف المذاهب العقدية والفلسفية.

- **الحقائق في تعريفات مصطلحات علماء الكلام:** وقد ذكره كل من عادل نويهض [7] وفنسك [8]، ويبدو أنه هو كتاب المقدمات.

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 89.

[2] - المرجع نفسه، ص 89.

[3] - الملالي، المصدر السابق، ورقة 140 / أ.

[4] - المصدر نفسه، ورقة 140 / أ.

[5] - المصدر نفسه، ورقة 141 / أ.

[6] - المصدر نفسه، ورقة 141 / أ.

[7] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980 م، ص 181.

[8] - فنسك وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت القندي وآخرون، د ط، د م ط، 1933 م، م 12، ص 291.

ب- شروحه على غيره:

13- المنهج السديد في شرح كفاية المريد: وهو شرح على لامية أبي العباس أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري (ت 884 هـ / 1479 م) وهي نظم في علم الكلام على هداية الخواص والعوام، ومطلعها:

الحمد لله الواحد الأزلي سبحانه جل عن شبه وعن مثل

تحتوي على 355 بيتا، وقد شرحها السنوسي بناء على طلب صاحبها فجاء الشرح في أكثر من 600 ص وقد قام بتحقيقه مصطفى مرزوقي ويعد من أروع ما كتب السنوسي [1].

14- شرح عقيدة الحوضي "واسطة السلوك" ومطلعها :

الحمد لله الذي دل عليه إيجادنا ثم افتقارنا إليه

و صاحبها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الحوضي (ت 910 هـ / 1504 م) تلميذ السنوسي الذي طلب منه شرحها فامتثل لتلميذه [2].

15- شرح المرشدة [3]: المرشدة رسالة وجيزة في العقيدة الإسلامية لا تتجاوز الصفحتين، سميت بالمرشدة لافتتاحها بعبارة " اعلم أرشدنا الله وإياك " وقد أطلق عليها هذا الاسم في عهد متأخر عندما كثر تداولها بين الناس، مؤلفها هو أبو عبد الله محمد المهدي بن تومرت (ت 524 هـ / 1129 م) وكان الهدف من تأليفها تلقينها للعامة ليبنى إيمانهم على أسس صحيحة، وقد أصدر عبد المؤمن بن علي [4] مرسوما يأمر فيه بفهمها وحفظها [5]، وقد حررت تحريرا بليغا، تعرضت للمسائل المتعلقة بالإيمان بالله

---

[1] - محمد بن يوسف السنوسي، المنهج السديد في شرح كفاية المريد، تحقيق مصطفى مرزوقي، د ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1994 م، ص ص 20، 632.

[2] - الملالي، المواهب القدسية، ورقة 141 / أ.

[3] - الصدر نفسه، ورقة 141 / أ.

[4] - هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكومي البربري، ولد قرب تلمسان سنة 487 هـ/1094م، جعله ابن تومرت قائدا لجيوشه، بويع بالخلافة بعد موته وحد المغرب العربي (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) والأندلس تحت راية الإسلام، كان متدينا تقيا محبا للغزو والفتوح، توفي في رباط سلا في طريقه إلى الأندلس مجاهدا سنة 558 هـ / 1163 م (الزركلي الإعلام، ج 4، ص 319).

[5] - عبد المجيد التجار، المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وآثاره بالمغرب، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص 448.

وبصفاته دون أن تتعرض للسمعيات والإمامة. كانت المرشدة منتشرة بتلمسان فطلب بعض أهلها من السنوسي شرحها فامتثل، ولاسيما أنه كان من المعجبين بها، فمدحها وأكد صحتها العقدية بقوله:

" أجمعت الأمة على صحة هذه العقيدة، وأنها مرشدة رشيدة، ولم يترك المهدي أحسن منها وسيلة نفعنا الله وإياك بعقد عقيدتها الجليلة " [1]. ولكن السنوسي لم يكمل شرحها لسفر شغله عن ذلك، فأكمل شرحها بعض أصحابه " [2]

16- شرح على جواهر العلوم للعضد [3] في فن علم الكلام على طريق الحكماء:

وهو على نهج طوالع البيضاوي [4] لكنه أصعب منه وأشمل كما أخبر السنوسي. [5]

أثر ما سبق في نشر وتثبيت الأشعرية

لقد أثمر ما سبق في التأثير الفعال في القرون الموالية، وسنكتفي بالإشارة إلى جانبين فقط، هما تلاميذه الذين هم نتاج التعليم، ومجالات التأثير. وسنكتفي بالإشارة إلى التأثير العقدي.

أ- التلاميذ: أثمر تعليم السنوسي ووعظه تخرج كثير من العلماء على يديه نشروا أفكاره وكانوا واسطة في الربط بين السابق واللاحق، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

1- محمد بن عمر الملالي التلمساني: لازم السنوسي أكثر من 35 سنة وقدم لنا حياة شيخه بتفاصيلها ومن مؤلفاته " شرح الصغرى " وكان المصدر الأساسي لكل الذين كتبوا عن السنوسي [6].

---

[1] - ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، د ط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 210.

[2] - عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص ص 453، 454.

[3] - هو عضد الدين الإيجي الفارسي، عالم بالأصول والعربية، من تأليفه " المواقف " في علم الكلام و" جواهر العلوم " و" العقائد العضدية"، مات سجينا سنة 756 هـ 1355 م (الزركيلي، الإعلام، ج 4، ص 248).

[4] - هو أبو عبد الله بن عمر الشيرازي الفارسي، عالم بالفقه والعقائد والتفسير، له مؤلفات منها " طوالع الأنوار " في التوحيد و" أنوار التنزيل وأسرار التأويل " توفي سنة 685 هـ / 1286 م، (الزركلي، الأعلام ، ج 4، ص 248)

[5] - الملالي، المواهب القدسية، ورقة 141/ب.

[6] - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الملالي، المواهب القدسية.

2- محمد بن عبد الكريم المغيلي [1]: (ت 909 هـ / 1503 م) الذي يعد أكبر ناشر للإسلام في افريقيا جنوب الصحراء، وهو العالم الجليل الذي قام برحلة طويلة -لم يعد منها- إلى منطقة أدرار ناشرا الإسلام محاربا البدع والمنكرات، ووجد بها يهود توات يعيشون فسادا فوضع حدا لفسادهم بعد استشارة شيخه السنوسي والحافظ التنسي (ت 899 هـ / 1493 م) اللذين – دون غيرهما – أعطياه الضوء الأخضر في تغيير أحداث اليهود، وواصل نشر الإسلام والعقيدة الأشعرية النقية ومحاربة البدع واتصل بالسلاطين وكتب لهم كتبا حول نظام الحكم وتغيير المنكر، فوصل من أدرار إلى مالي والنيجر ونيجيريا -و لا زالت بقايا أسرته إلى اليوم في مدينة " كنو "- كما حارب التخلف والجمود والتحجر العقلي فألف في المنطق " شرح جمل الخونجي" و"مقدمة في المنطق" و" منظومة فيه " سماها منح الوهاب وثلاثة شروح عليها. وقد ناظر السيوطي الذي حرم المنطق [2] وكان سببا في اعتناق ملايين الزنوج للإسلام وتنظيف عقول المسلمين منهم من بقايا الوثنية.

3- أحمد زروق: (ت 899 هـ / 1493 م) : يعد من أهم تلاميذ السنوسي الذين تصدوا لتصحيح العقيدة بمحاربة البدع والشعوذة، وقد ألف في ذلك مؤلفات قيمة، منها " كتاب البدع "، و"ذكر حوادث الوقت" الذي يحتوي على 100 فصل حول بدع أدعياء التصوف [3]، وغيرها من المؤلفات المتنوعة، منها " شرح الأسماء الحسنى " [4]، مقتديا بأستاذه السنوسي الذي شرحها كما ذكرنا أثناء حديثنا عن مؤلفاته، وقد قام الشيخ زروق برحلات طويلة مر فيها بالصحراء الجزائرية فتتلمذ عليه محمد الصغير والد عبد الرحمان الأخضري البنطيوسي (ت 953 هـ / 1546 م) فتأثر به هو وأسرته، ومنها ابنه عبد الرحمان الأخضري الذي هاجم أدعياء التصوف بقدسيته الشهيرة، ومما قاله فيها:

ومن يرد معرفة البدع وما أثبتنا عليه أصل المدع

---

[1] - محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، د ط، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ج 1، ص 274.

[2] - أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط 1، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 1989 م، ص ص 576- 578.

[3] - ابن مريم، البستان، ص 47.

[4] - أحمد بابا التنكيتي، المرجع السابق، ص 131.

ففي كتاب شيخنا زروق فوائد بديعة الفتـــــوق [1]

وإذا كان الخضري قد تأثر بتلميذ السنوسي زروق، فإنه شرح أيضا صغرى السنوسي، وهو ما يدل على استمرارية تأثير السنوسي العقدي في نشر وتثبيت الأشعرية، وقد انتقل تأثير زروق والأخضري إلى قسنطينة، ومن أهم الذين تأثروا بهما شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون (ت 1073 هـ / 1662 م) [2] الذي استلهم القدسية في كتابه النفيس "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" كما أورد رسالة مطورة لأحمد زروق يرد بها على أدعياء التصوف، وقد وصل تأثير زروق إلى قسنطينة بواسطة الأخضري وبزيارة زروق إليها وكان يحط رحاله في عائلة الفكون، وكذلك بواسطة ابن الشيخ زروق أحمد الأكبر الذي استقر بقسنطينة بعد موت أبيه وأرسل مراسيل للإتيان بميراث أبيه [3] من طرابلس [4] التي جعلها مستقره، وقد توفي بها بعد رحلات إلى الحج [5] مما يعني وصول تأثير السنوسي إلى البقاع المقدسة.

ب- المؤلفات العقدية

استطاع السنوسي أن يسيطر بعقائده على الغرب الإسلامي خاصة والوصول إلى بقية العالم الإسلامي عامة بحيث يعد أكبر عالم كلام في الغرب الإسلامي على الإطلاق، وقد أثر في العلماء الذين أتوا بعده فنشروا عقائده، ومن هؤلاء الورثيلاني (ت 1193 هـ / 1779 م) الذي أقنع علماء الخنقة بتعلم عقائد السنوسي وتعليمها. وقد سيطرت هذه العقائد على الجزائر خلال العهد العثماني سيطرة كلية على الدارسين وتعدى ذلك إلى خارج الجزائر.

---

[1] - المهدي البوعبدلي، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، جانفي 1978 م، ص 19.

[2] - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 م، ص 58.

[3] - وكانت هذه التركة تتمثل في أسرة أبيه ونصف فرس قبض ثمنها 8 دنانير ذهبية وبرنوس أبيض وجبة صوف وثوب بالغزل وسبحة قفل مع 14 سفرا وكناش. هذا حال الصالحين، ولو أراد الدنيا لكان من أغنى الناس لمكانته وشهرته وعلمه (أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، ماء الموائد، الرحلة العياشية للبقاع المقدسة، تحقيق أحمد فريد المزيدي)، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، م 1، ص ص : 132، 133.

[4] - المصدر نفسه، ص ص 133، 134.

[5] - أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 132.

وأهم المؤلفات التي كان لها أكبر الأثر إنما هي أم البراهين، ثم الوسطى، ثم الكبرى، ثم شرح لامية الجزائري، ثم شرح نظم الحوضي وصارت هذه المؤلفات تشكل ظاهرة في حد ذاتها نتيجة اهتمام العلماء بها [1]، وكأن الفكر الفلسفي والديني تجمد عندها فلم يعد قادرا على الخوض في مسائل التوحيد إلا من خلال عمل السنوسي. وقد انتشرت تلك المؤلفات من تلمسان من خلال صاحبها ثم تلاميذه من بعده، كالملالي الذي شرح الصغرى والعلماء الآخرين كابن مريم (كان حيا في القرن 10 هـ / 16م) الذي كتب شرحا على الصغرى للنساء والعوام، كما شرح الكبرى أيضا وسماه "كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد " [2] ، وقد نقل عقائد السنوسي إلى بني راشد كل من أبي السادات يحي المديوني ومحمد بن يحي المغراوي وعمر العطافي. أما قسنطينة فقد قام الشيخ عمر الوزان (ت 960 هـ / 1552 م) بشرح صغرى السنوسي ثم محمد البوزيدي [3] الذي كان يدرس عقائد السنوسي بها. وكان يرفض إيمان المقلد متأثرا بالسنوسي. أما عنابة فقد نظم فيها أحمد زروق العنابي (ت 1139 هـ/ 1726 م) عقائد السنوسي الخمسة – ولا أحد يجهل ما للنظم من سهولة الانتشار.

و في الصحراء، فقد شرح الأخضري (ت 953 هـ / 1546 م) الصغرى، أما الجزائر العاصمة فكان من الذين شرحوا الصغرى وتناولوها بالتدريس والتعليق سعيد قدورة (ت 1066 هـ / 1655 م) مفتي الجزائر الذي كان من مشاهير المدرسين [4]، وقد درسها لطلابه متنا وشرحا.

وكان من بين الذين شرحوا مؤلفات السنوسي ودرسوها العالم الورع مصطفى الرماصي الذي شرح الصغرى بناء على طلب بعض معاصريه في 300 صفحة، وأكمل ذلك في سنة (1105 هـ/ 1693م)، كما شرح عبد الرزاق بن حمادوش (ت بين 1197 هـ – 1200 هـ / 1782 – 1785 م) الكبرى بعنوان " مباحث الذكرى في شرح العقيدة الكبرى"[5]،

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 م، ج 2، ص ص 97، 98.

[2] – ابن مريم، البستان، ص 314.

[3] – هو أحد علماء قسنطينة في القرن 11 هـ/17 م (أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 97).

[4] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 160.

[5] – المرجع نفسه، ص 442.

ونختم حديثنا عن الجزائر بالقول بأنه لم تكن توجد زاوية من الزوايا لا تدرس بها عقائد السنوسي، والدليل على ذلك مخطوطاتها التي لا زالت موجودة بمكتبات ما بقي من تلك الزوايا، وقبل مغادرة الجزائر نشير إلى أنها ترجمت في الجزائر من طرف لوسياني (مدير الشؤون الدينية آنذاك) إلى الفرنسية مع تعليقات عليها كما مر سابقا بأمر من الحاكم العام الفرنسي في الجزائر سنة 1895 م.

أما خارج الجزائر فقد نشر عقائد السنوسي كبار العلماء عن طريق الرحلات شرقا وغربا.

ففي الغرب (المغرب) نشرها مجموعة من العلماء أمثال محمد بن يحباش وعبد الله الوريلجي [1] كما شرح المراكشي السكتاني (ت 1062 هـ / 1651 م) الصغرى.

أما تونس فقد وصلتها عقائد السنوسي وصارت مقررة رسميا ضمن برامج التعليم خاصة في جامع الزيتونة، ومن الشروح التي كانت تدرس على عقائد السنوسي شرح أبي إسحاق السرقسطي الاندلسي المسمى "الهبة والعطاء في شرح العقيدة الوسطى " حيث قررت النظارة العلمية تدريسه بالجامع الأعظم بالزيتونة.

أما المشرق، فقد نشر هذه العقائد مجموعة من كبار العلماء منهم أحمد المقري التلمساني (ت 1040 هـ / 1630 م) [2] الذي درسها في مصر ويحي الشاوي الذي قدم مصر سنة 1074 هـ / 1663 م فنشر بها العقائد وشروطها، ثم الشيخ الورتيلاني الذي درس الكبرى في الأزهر بطلب من علمائها ووضع حاشية على حاشية المراكشي على الصغرى، وكان الشيخ الحطاب من المعجبين بعمل الورثيلاني كما كان الشيخ علي الصعيدي (ت 1172 هـ / 1758 م) يدرس الكبرى في رواق المغاربة بالأزهر، وكان يجتمع عليه خلق كثير [3].

وقد تناول عقائد السنوسي علماء مصر بالشرح والتدريس، ومنهم أحمد بن عبد الفتاح الملوي (ت 1181 هـ / 1777 م) الذي كتب حاشية على حاشية المراكشي على الصغرى والشيخ الجوهري الذي شرح الصغرى شرحا مختصرا [4]، كما شرحها

---

[1] – جمال الدين بوقلي حسن، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، ص 88.

[2] – المرجع نفسه، ص ص 88، 89.

[3] – الحسين بن محمد الورتيلاني، نزهة النظار في فضل علم التاريخ والأخبار، الرحلة الورتيلانية)، ص 285.

[4] – المصدر نفسه، ص 304.

إبراهيم الباجوري (ت 1277 هـ/1860م) حيث كتب حاشية على أم البراهين وطبعت ببولاق بمصر سنة 1293 هـ/1876م في 682 ص وبهامشها تقرير الشيخ الأنباني، كما شرحها أيضا الدسوقي (ت 1214 هـ) كما ذكرنا قبلا. وهذا يعني أن مجموعة كبيرة من علماء مصر تصدوا لها بالشرح والتعليق والتدريس والنشر وقد أشرنا قبلا إلى طبعاتها المتعددة.

وقد انتقلت عقائد السنوسي كذلك، إلى مختلف الدول الإفريقية بواسطة التلاميذ، وقد أشرنا قبلا إلى المغيلي وكذلك بواسطة العلاقات الثقافية والتجارية التي كانت قائمة بين تلمسان وافريقيا جنوب الصحراء. كما كانت تلمسان الزيانية حلقة وصل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء من جهة وبلدان المغرب الإسلامي ومصر من جهة أخرى وعن طريق مصر كذلك ولا ننسى القوافل التجارية التي كانت تصل من تلك الدول إلى تلمسان، ومنها إليها [1] يضاف إلى ذلك انتشار الطرق الصوفية من الجزائر إلى تلك الدول.

وقد انتقلت مؤلفات السنوسي العقدية كذلك إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي، ومنها سوريا التي اطلعنا فيها بمكتبة الأسد الوطنية على شرح السنوسي على مقدماته، كما وصلت إلى الهند وغيرها وترجمت كما مر سابقا باندونيسيا، كما ترجمت إلى الألمانية ونشرت، وقد بقيت تدرس في مختلف أماكن العالم الإسلامي في المدارس والبيوت والزوايا، وقد قدمت عدة دراسات أكاديمية في مختلف الجامعات الجزائرية عن عقائد السنوسي وفكره، منها دراسات جمال الدي بوقلي حسن وعليوان اسعيد وخليفي الشيخ وغيرهما وهي رسائل ماجستير ودكتوراه. وكل هذا دليل على عمل السنوسي الجبار في نشر وتثبيت الأشعرية، بحيث لم يحصل في تصورنا لعالم شرقي أو غربي أن أثر بعقائده كما أثر السنوسي إلى حد أن العلماء لم يكتفوا بدراستها وتدريسها وشرحها والتعليق عليها، بل نظموها نظما كما مر سابقا، وهو ما يجعلنا نعتقد أن السنوسي أكبر عالم كلام في الغرب الإسلامي على الإطلاق وعلى مر العصور.

---

[1] - جمال الدين بوقلي حسن، المرجع السابق، ص 89.

الخاتمـة:

تبين لنا من خلال عرضنا لما بذله السنوسي من جهود في نشر وتثبيت الأشعرية أنه أكبر عالم كلام أشعري في الغرب الإسلامي على مر العصور، بحيث لم يكتب التاريخ لعالم مثله أن يحدث ذلك التأثير الذي أحدثه السنوسي، وقد ركزنا في ورقتنا على الجانب العقدي من خلال ثلاث مجالات هي:

التصوف، التعليم، المؤلفات. ولقد أثمرت هذه المجالات في إنتاج منظومة أشعرية متكاملة وصحيحة عقديا استحوذت على عقول العلماء في القرون الموالية إلى حد نظم بعضهم لها في قصائد، وكانت هذه المؤلفات من أهم ما وقف في وجوه المبشرين بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولا زال تأثير السنوسي إلى يومنا هذا بدليل كثرة الرسائل الجامعية المنجزة في مختلف جوانب إبداعه.